

الشيعة والسنة: سلام مستحيل؟

FONDATION POUR
L'INNOVATION
POLITIQUE
fondapol.org

www.fondapol.org

ماتيو تيريه

الشيعة والسنة:
سلام مستحيل؟

ترجمة
عبد الحق الزموري

جانفي 2016

مؤسسة التجديد السياسي (Fondapol)
هي مركز بحث وتفكير (ثنك تانك)
ليبرالي تقدمي أوروبي

نيكولا بازير: رئيسا
غريغوري شرتوك: نائب رئيس
دومينيك راينبي: مديرا عاما
لورونس باريزو: رئيسة المجلس العلمي والتقييم

تنشر المؤسسة هذا الكتيب في سياق اهتمامها بالتقييم

المستشار العلمي لسلسلة قيم الإسلام هو عالم الإسلاميات في جامعة
سترابورغ إيريك جوفروا

العنوان بيد الخطاط راني روابح

الشيعة والسنة: سلام مستحيل ؟

ماتيو تيريبه

أستاذ الفلسفة، دكتور العلوم الدينية، باحث مشارك في

مخبر البحوث حول الديانات التوحيدية

بعد أن نظر الرأي العام الغربي إلى الإسلام باعتباره كلاً متجانساً، نراه الآن ينزع إلى رؤيته كياناً متناقضاً، مقسماً بسبب "حرب الإخوة" بين الشيعة والسنة. وينزع هذا الرسم الجديد إلى تعزيز الأحكام المسبقة المتعلقة بإسلام شديد العنف، وكذلك إلى التغطية على الخطوط الأخرى للقسم التي تخترق العوالم الإسلامية سواء في المستويات الاجتماعية أو السياسية. لذلك، فإنّ من اللازم أكثر من أي وقت مضى أن نعمل على تسليط الضوء على ما يفرق، ولكن أيضاً على ما يقرب بين التيارين الأساسيين في الإسلام (التيار السني والتيار الشيعي). فهل إنّ المواجهة بينهما حتمية لا مهرب منها؟ وهل من المحال أن يعمّ السلام بينهما؟

ارتبط ظهور الإسلام الشيعي على الساحة السياسية الدولية بالثورة الإيرانية سنة 1979 م. فبعد أن كان معدوداً حتى ذلك الحين فرقة مبتدعة لا وزن

لها، أصبح التشيع بغمّة رمزا للإسلام الأكثر تطرفا. وبعد مرور عشرينين على هذا الحدث، فرض تنظيم القاعدة نفسه باعتباره العدو الرئيس للغرب باسم الإسلام السني - الوهابي المعادي بصورة جذرية للتشيع.

كان الصراع بين السنة والشيعة قد استحكم سنة 2003 بعد الغزو الذي تعرض له العراق من الحلف الأطلسي. وقد فرض هذا الصراع نفسه بُعدا من أبعاد الحرب الدائرة الآن في سوريا رغم أنه لم يكن وراء اندلاع الاحتجاجات على النظام. وكان الصراع بين الشيعة والسنة دافعا للظهور السريع للتنظيم الذي سمّي نفسه "الدولة الإسلامية في العراق والشام" (وهو يمثل «تحوّلا» في تنظيم القاعدة، وتُختزل تسميته في اللغة العربية إلى «داعش»). اتخذ الصراع السني الشيعي، مؤخرا، منعطفا عسكريا جديدا في اليمن، وذلك بعد الالتزام السعودي-الوهابي غير المسبوق بمحاربة الحوثيين - فرقة زيدية، وتُحسب عل مذاهب الشيعة- المسنودين من إيران.

كان هذا الصراع كامنا دائما في المملكة السعودية حيث تعيش أقلية شيعية مهمّشة (10 %) في شرق البلاد، وكان كامنا بصورة أكبر في مملكة البحرين

حيث تُهمَّش الأغلبية الشيعية (70 %) من لدن العائلة السننية الحاكمة، معوّلةً في ذلك على الدعم السعودي واللامبالاة الغربية.

بناء على ما تقدّم يكون فهم الانقسام الداخلي للإسلام أمراً ملحاً. وقد كان من الممكن تحقيق ذلك منذ أمد بعيد لو لم تنزع الدراسات الإسلامية في الغرب إلى المطابقة بين الإسلام وبين التيار السني الأغلي، والحال أنّ تأثير الأقليات في التاريخ الثقافي للإسلام هو تأثير أقوى من وزنها البشري. وحتى لو ولّينا وجهنا شطر المعطيات الكمية، فإن معيش أكثر من 200 مليون شيعي ومعتقداتهم (أي ما يعادل ما بين 15 و20 % من المسلمين في العالم) لا يمكن أن يكون أمراً خالياً من الدلالات.¹ لذلك كان من المهم ألاّ نخلط بين الإسلام وأهل السنة، وألاّ نخلط بين أهل السنة والوهابية، المهم هو أن نفهم الرابط التكويني بين السنة والشيعة. كما لا يمكن الخلط بين التشيع والخمينية التي هي إيديولوجيا مؤسس

¹ أرقام تقريبية نظراً لغياب إحصائيات موثوقة في العديد من البلدان. يبلغ عدد الشيعة الإمامية ما بين 150 و200 مليون إمامي، ويبلغ عدد الإسماعيلية ما بين 15 و20 مليون شخص، أما الزيدية فيتقرب عددهم من 5 ملايين شخص

الجمهورية الإسلامية الإيرانية، فلمهم هو فهم التنوع الداخلي للتشيع وما يربطه تكوينيا بأهل السنة. بالإضافة إلى ذلك، سنعرض للجذور التاريخية للانقسام، والاختلافات العقديّة بين السنة والشيعة، ثم سنتطرق بعد ذلك إلى الانقسامات الداخلية ضمن كل مذهب منهما، وذلك لبحث مسألة الحرب والسلام بين فرعي الإسلام.

أولاً: تاريخ الانقسام

1. خلافة النبي وأسس الإسلام

تعود القطيعة بين السنة والشيعة إلى فترة تأسيس الإسلام، إلى أحداث تختلف الروايات السنية والشيعة حولها اختلافاً جذرياً. كانت الدراسات الإسلامية، فيما يخص هذه الفترة، قد اقتصر على البحث في التراث السني المهيمن، أي على التاريخ الذي كتبه المنتصرون. ومنذ مدة ليست بالبعيدة، بدأت الدراسات في الاعتماد على المصادر الشيعية القديمة، وقد كان ذلك خاصة بفضل أعمال محمد علي أمير معزّي.²

²) Mohammad Ali Amir-Moezzi, *Le Coran silencieux et le Coran parlant*, CNRS Éditions, 2011

كان مبدأ الاختلاف بين المؤيدين للشيعية والمؤيدين للسنة - وهي تسمية يمكن اعتمادها للحديث عن المجموعات السياسية-الدينية التي سيتكفل تطورها بظهور التشيع والتسنن الحالي-، هو خلافة النبي محمد على رأس الأمة. ووفقا للروايات السننية التي غالبا ما يعتمدها المؤرخون المعاصرون، فإنّ النبي لم يترك أي وصية في هذه المسألة. بعد وفاة النبي سنة 632 للميلاد، بويع أبو بكر «خليفة لرسول الله» وذلك بعد اختياره من لدن أولي السابقة في الهجرة من الصحابة المكيين ومعهم الأنصار دون معارضة كبيرة.³

كان للخليفة الأول فضل القضاء على حركة الردة التي تفشت بين مجموعة من المسلمين. وعند وفاته سنة 634 للميلاد، أوصى بالخلافة من بعده لعمر بن الخطاب -وهو من كبار الصحابة وقد كان وراء اختيار أبي بكر للخلافة-، فبدأ معه عهد الفتوحات الإسلامية، تلك الفتوحات التي ستؤسس خلال عشرين عاما إمبراطورية حقيقية. بعد اغتياله سنة

³) Hichem Djaït, *La Grande Discorde*, Gallimard, 1989, p. 57-61

644 للميلاد، تولّى الخلافة من بعده الصحابي عثمان بن عفان فواصل على نهج من تقدّمه إلى أن اغتيل بعد تمرد قام ضده سنة 656 ميلادية. عندها تولّى الخلافة من بعده الصحابي علي بن أبي طالب ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة، وقد كان من المتوقع منذ حياة الرسول أن يخلفه هذا الصحابي بعد وفاته. ولكنّ فترة خلافته تميزت بصراع ضد حركات التمرد الداخلي التي قامت في وجهه، والتي انتهت بمقتله سنة 661 ميلادية. ويعتبر أهل السنة هؤلاء الرجال الأربعة أفضل من حكم بعد الرسول ويُجلّونهم بلقب « الخلفاء الراشدين ».

تختلف الذاكرة الشيعية المرتبطة بهذه الأحداث عن الذاكرة السنية. لا تبدو الرواية الشيعية بناء متأخرا للأحداث، فهي موثقة منذ القرن الثامن للميلاد في مصنفات حظرتها السلطات السنية، تلك المصنفات التي كتبتها علماء الشيعة وتجاهلتها الدراسات الإسلامية الغربية.⁴ بعد موت الرسول محمد، ساندت طائفة من المسلمين حق علي بن أبي طالب في تولّي الأمر من بعده، وهو سبب تسميتهم بـ«الشيعة».

⁴) Mohammad Ali Amir-Moezzi, *op. cit.*, p. 27-61

كان هؤلاء يعتبرون أن عليا هو أول من تلقى رسالة النبي منذ طفولته، وقد زوجه النبي بابنته فاطمة التي أنجب منها الحسن والحسين، وهما العقب الوحيد للرسول من الذكور. وكانت آخر حجج هؤلاء هي أنّ الرسول كان قد عيّن عليا أميراً للمؤمنين بعد عودته من حجة الوداع بمكة سنة 631.⁵ لم يعترف الشيعة أبداً بشرعية الخلفاء الثلاثة الذين تولوا الأمر قبل علي، كما أنّ روايتهم لكيفية خلافة النبي تعارض سردية الانتقال عبر آلية «الإجماع». فهم يتحدثون عن وجود مؤامرة حقيقية حبك خيوطها عمر وأبو بكر وذلك قصد استبعاد علي من الخلافة، وعن أشكال قاتلة من العنف الذي مورس على فاطمة بنت الرسول لحمل علي على مبايعة أبي بكر. نحن هنا في قمة الطلاق بين ذاكرتين: يعتبر الشيعة أنّ من يعدّهم السنة «خلفاء راشدین» (أبا بكر وعمر وعثمان) هم من تسبب في الجريمة العظمى ضد الإرادة الإلهية، بينما يعدّون فاطمة بنت الرسول أول شهداء العقيدة الصحيحة.

⁵) Lucia Veccia Vaglieri, «Ghadîr Khumm», in *Encyclopédie de l'Islam* 2, II, Brill, p. 1015-1017.

يبدو أن شخصية علي بن أبي طالب كانت تثير دائما قدرا كبيرا من البغض ومن التقديس، وهو أمر تكشفه الفترة القصيرة التي تولّى فيها الخلافة. كانت معركة صفين (657م) التي تواجه فيها الخليفة علي مع معاوية بن أبي سفيان والي الشام من أكثر المعارك دموية في بدايات الإسلام. وقد اضطرّ علي إلى قبول التحكيم الذي انتهى إلى إقرار الأمر الواقع وإلى تكبّده هزيمة سياسية. انقلب جزء من شيعة علي عليه بعد حادثة التحكيم وهم الذين سيُطلق عليهم اسم «الخوارج». وقد انتهى الأمر بأحد هؤلاء الخوارج (عبد الرحمان بن ملجم) إلى اغتيال علي. عندها، نجح معاوية في فرض نفسه خليفة، بل نجح في الحصول على مبايعة الحسن بن علي الابن البكر للخليفة الرابع والإمام الثاني حسب شيعة علي. يعتبر أهل السنة عليا أبي طالب الخليفة الراشد الرابع، ويرون أن الأمويين قد خلفوا وراءهم ذكرى سلطة فاسدة وغير شرعية. أما الشيعة فإنهم يعتبرون فترة حكم علي هي الفترة الوحيدة التي عرف فيها الإسلام (بعد الرسول) حكما عادلا بصورة مطلقة، بينما كان بنو أمية سلطة غاصبة تمثل أعداء أولياء الله.

2. مأساة كربلاء وتشكل التشيع

بعد وفاة الحسن ومعاوية سنة 680م، رفض الحسين ثالث أئمة الشيعة مبايعة يزيد بن معاوية. وعندما كان الحسين متوجها إلى الكوفة، ولعله كان ينوي تزعم حركة تمرد، حاصره جند بني أمية في سهل كربلاء وقتلوه شر قتلة هو وعائلته وأنصاره الذين بلغ عددهم المائة على وجه الترجيح. كان لهذه المجزرة نتيجة أولى هي ظهور التشيع باعتباره حركة سياسية - دينية متجاوزة حدود القبائل. وكانت واقعة كربلاء وراء ظهور نوع من الاحتفاء الشيعي المخصوص بالشهادة، وهو احتفاء يقع كل سنة أعقبت مأساة كربلاء في طقس مهيب هو إحياء ذكرى عاشوراء. سرعان ما انقسم الشيعة، ولكننا لن نتبع في هذا الموضوع إلا التيار الذي أصبح مهيمنا، ألا وهو التيار المسمى بـ«الإمامي» أو «الإثني عشري». بعد مقتل الحسين، استمر خط الأئمة من خلال ابنه الذي نجا من المجزرة، وصارت الإمامة بالوراثة. وقد أعرض هؤلاء الأئمة المتعاقبون عن كل طموح سياسي وانصبت جهودهم على التعليم الروحي ليؤسسوا العقيدة الشيعية. من ذلك أن الإمام الشيعي السادس جعفر الصادق (ت765 م) - وهو إمام يعترف أهل

السنة بأنه كان من أكابر علماء عصره - ظل ملازماً
 لزعته الزهدية عندما قامت الثورة العباسية بتعبئة
 التطلعات الشيعية قصد الإطاحة ببني أمية. بعد
 اختفاء الإمام الحادي عشر سنة 874م، سادت
 أطروحة اختفاء ابنه الأوحيد هرباً من أعدائه. وقد
 استمر الإمام الثاني عشر بالاتصال بشيعته عبر
 وساطة ممثليه إلى حدود سنة 941م، وهو التاريخ
 الذي أعلن فيه الدخول في الغيبة الكبرى، ولن يظهر
 مرة أخرى إلا في نهاية الزمان « ليملاً الأرض عدلاً
 بعد أن ملئت جوراً ». إننا أمام العقيدة الأساسية عند
 الشيعة الإثني عشرية، عقيدة غيبة الإمام الثاني عشر
 وظهوره المنتظر.

3. ظهور المذهب السني

يمكن اعتبار المذهب السني آخر المذاهب ظهوراً
 من بين المجموعات السياسية - الدينية.⁶ كان أنصار
 الخلفاء الثلاثة الأوائل، يدافعون بصورة خاصة - في
 مواجهة وجهات النظر الشيعية المناصرة للشرعية

⁶) Claude Gilliot, « La représentation arabo-musulmane des premières fractures religieuses et politiques (I- IV e / VIIe-Xe siècles) et la théologie », in Thierry Bianquis, Pierre Guichard et Mathieu Tillier (dir.), *Les Débuts du monde musulman. VIIe-Xe siècle*, PUF, 2012, p. 137-159 (انظر خاصة الصفحة 156).

والإصلاحية- عن نوع من البراغماتية السياسية وعن تعلق بالقيم التقليدية. في بادئ الأمر، وقع الاختيار على تعبير "أهل السنة والجماعة" من لدن أنصار معاوية ضد أنصار علي في معركة صفين، ولكن أهل السنة أعطوا بعد ذلك الحق لعلي في هذا الصراع. لقد بيّن جوزيف فان آس أنّ إحدى التعريفات التقنية الأولى لأهل السنة في نهاية القرن الثامن للميلاد كانت «أولئك الذين لا يقولون بالخروج على الحاكم ويصلّون وراء كل أمير سواء كان عادلا أم ظلما».⁷ في العصر العباسي، وفي إطار السجال الكلامي تأسس حزب «أهل الحديث» الذي أبدى امتثالا صارما لتعاليم النبي المحفوظة في الأحاديث، كما كان أهل الحديث معارضين لعقلانية المعتزلة. بعد الفترة القصيرة والعنيفة التي ساد فيها الاعتزال، انتصرت آراء أهل الحديث في أواسط القرن التاسع للميلاد، فكان أن استحوز الفريق المهيم على تعبير «أهل السنة والجماعة».⁸ وفي حين أنّ تسمية «الشيعية» تحيل إلى «شيعية علي» الذين ظلوا أقلية، فإنّ تسمية «أهل

⁷) Josef van Ess, *Prémices de la théologie musulmane*, Albin Michel, 2002, p. 114.

⁸) Gautier H.A. Juynboll, «Sunna», in *Encyclopédie de l'Islam* 2, IX, Brill, p. 913-917.

السنة» كانت مرتبطة بتشكيل تيار أغلي داخل الإسلام. عُرف الشيعة بأنهم «روافض»، وذهب أهل السنة إلى تعريف أنفسهم بأنهم أولئك الذين يعتمدون «الإجماع» أصلا من أصول الفقه، إلى جانب القرآن وسنة النبي.

ثانيا: كتاب، نبي وإسلامان

1. المدونات الدينية السنية والشيعة

يبني أهل السنة والشيعة كلاهما معتقداتهم وفقههم على القرآن والسنة. ولكنّ علاقتهما بالقرآن وتعريفهما للحديث يعرف اختلافا جذريا. من المعلوم أنّ القرآن، عند وفاة النبي محمد، لم يكن مجموعا في كتاب. ولكننا نعلم أيضا أنّ مختلف أجزاء الوحي كانت محفوظة في قلوب الصحابة. يرى أهل السنة أنّ الخليفة الثالث عثمان بن عفان هو من بادر بتكوين لجنة من الصحابة عهد إليها بجمع القرآن في كتاب واحد هو المصحف الذي نعرفه، وهو المتكون من 114 سورة ولا يتّبع الترتيب الزمني للنزول.⁹ ولفهم الكتاب، وضع أهل السنة مجموعة

⁹) Régis Blachère, *Introduction au Coran*, Maisonneuve & Larose, 1959 ; Alfred-Louis de Prémare, *Aux origines*

من «علوم القرآن» كالنحو والتفسير وأسباب النزول، وخاصة علم الحديث الذي هو مجموع الأقوال المنسوبة إلى النبي محمد. أمّا فيما يخص التفسير، فقد غلب على علماء الكلام السنة الاعتماد على قراءة حرفية للنص، تاركين لله وحده أمر الآيات المتشابهات. بينما نجد أنّ فلاسفة من أمثال ابن رشد (ت.1198م) والمتصوفة من أمثال ابن عربي (ت. 1240م) كانوا قد طوّروا قراءة استعارية أو باطنية. يعتمد أهل السنة أفعال النبي وأقواله التي جمعت تحت اسم "الحديث" باعتباره المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن. وفي عهد الخلفاء الأوائل، لم تكن هذه الأحاديث تتداول إلا مشافهة. ولكن الحاجة إلى بناء مدونة فقهية وأخلاقية دقيقة، إضافة إلى تقديس النبي باعتباره نموذجاً للاقتداء، كل ذلك دفع إلى تدوين الأحاديث. ولكن سرعان ما تفتن علماء الحديث إلى ظنية العديد من الروايات، وكذلك إلى عملية الوضع الظاهر خدمة لمصالح سياسية. درس العلماء سلاسل الإسناد قصد الوقوف على قيمة الأحاديث. وأصبحت بعض المصنفات الحديثية «الصحيحة»

du Coran. Questions d'hier, approches d'aujourd'hui,
Téraèdre, 2004.

تقوم مقام القانون الملزم كصحيح البخاري (ت. 870م) وصحيح مسلم (ت. 875م). ورغم الصرامة التي أظهرها علماء الحديث السنة، فلا يمكن اعتبار الأحاديث مصدرا تاريخيا موثوقا فيما يخص بدايات الإسلام، خاصةً مع وجود أحاديث شيعية مختلفة. لذلك، يبدو مستحيلا كتابة سيرة ذاتية علمية للنبي أو القيام علميا بدور تحكيمي في النزاع التاريخي بين السنة والشيعية.

عرفت المواقف الشيعية تجاه القرآن «الرسمي» تطورا كبيرا.¹⁰ إذ تورد أقدم المصادر الشيعية أنّ عليا قام بعد استخلاف أبي بكر بجمع القرآن في كتاب، لكنه مُنع من عرضه على الأمة. وترى هذه المصادر أن القرآن «الأصلي» هو كتاب أكبر من القرآن المشهور ثلاث مرات، وقد حفظه الأئمة واختفى مع الإمام الثاني عشر. كما تقول هذه المصادر أنّ «المصحف» الذي فرضه أعداء الأئمة يحتوي على كثير من الإهمال - حذف الإشارات إلى علي وإلى آل بيت النبي، وكذلك الإشارات إلى أعداء النبي

¹⁰) Mohammad Ali Amir-Moezzi, *op. cit*

محمد-، بل يرون أنّ ذلك المصحف قد يكون احتوى بعض الإضافات. اضطرت الأغلبية العظمى من الشيعة تحت تأثير القمع إلى التخلي عن فكرة تدليس القرآن وقاموا بتطوير فهم باطني له. ولكنهم بقوا على موقفهم من اعتبار المصحف «صامتا» بدون تأويل يكشف معناه الخفي أو الباطني، وهو ما لا يقوى عليه إلا الإمام. يتقاسم الشيعة مع الصوفية والفلاسفة فكرة أنّ القرآن له دلالة حرفية ظاهرة، ودلالة روحية عرفانية. ويبدو أن هذه الفكرة قد ظهرت عند الشيعة بما أن أقدم تفسير باطني للقرآن يُنسب إلى الإمام جعفر الصادق. يتميز التفسير الشيعي بوضع عصمة الإمام ووظيفة الإمامة في المركز من الرسالة الإلهية.

لا يختلف الشيعة عن السنة في اعتبار الحديث السلطة النصية الثانية بعد القرآن. ولكنهم لا يعترفون إلا بأحاديث النبي التي يرويها الأئمة، كما يعتبرون أقوال الأئمة أيضا مقدسة. فكان أن شكّلوا مدونة حديثة تختلف عن المدونة السنية. بدأ تدوين الأحاديث في القرن الثامن للميلاد تحت رعاية الأئمة أنفسهم، فقد كان وضعهم كأقلية يجعل من المحافظة على تعاليم الأئمة مسألة يرتبط بها بقاء الجماعة الشيعية ذاتها. تمثّل المصنفات الحديثية الإمامية التي

تحتوي على آلاف الصفحات، تفسيراً روحياً ضخماً للقرآن ولمنهج النبي، تقلّ فيها الإشارات الفقهية. وبالإضافة إلى المصنفات الحديثية الأربعة المعتمدة، توجد مصنفات عديدة منسوبة إلى الأئمة أنفسهم، وهي محل تبجيل من لدن الشيعة إلى حد يضارع تبجيلهم للقرآن.¹¹

2. العقائد

لا ينحصر الخلاف الأصلي بين الشيعة والسنة في صراع من أجل السلطة السياسية. فالاختلافات العقيدية هي اختلافات هامة ويمكن أن ترجع حتى إلى عهد النبي ذاته وذلك من خلال اختلاف صحابته في فهم كلامه وأفعاله وتأويلهما. تتميز العقيدة الشيعية أساساً بموضوع الإمامة، "قيادة" الأمة بعد النبي، سواء أكان ذلك في موضوع الأشخاص المؤهلين شرعاً لتولي الأمر أو في موضوع أسس الإمامة ومجالها. يرى

¹¹ أهم المصنفات المعتمدة عند الإمامية هو كتاب الكافي للكليني (ت940). ويمكننا أن نذكر «نهج البلاغة» من بين الكتب المنسوبة إلى الأئمة، وهو مجموعة من الخطب والحكم المنسوبة للإمام علي بن أبي طالب والتي تجد قبولاً حسناً عند أهل السنة أيضاً. فيما يخص المصادر الشيعية القديمة، انظر:

Mohammad Ali Amir-Moezzi, *Le Guide divin dans le shi'isme originel. Aux sources de l'ésotérisme en islam*, Verdier, 1992, p. 48-58

أهل السنة أنّ هذه الولاية العامة ليست روحية بل هي منحصرة في السياسة، إذ لا عصمة لأحد في أمور الدين بعد النبي. كما أنّ وليّ الأمر يُختار ويكتسب شرعيته من إجماع الأمة. يستعمل أهل السنة مصطلح «الخليفة» للحديث عن صاحب السلطة السياسية، كما يستعملون مصطلح «الإمام» لوصف القائد الديني ثمّ إمام المسجد، لكن من دون أي تبجيل استثنائي. أما الشيعة، فنجد لديهم فهما آخر للسلطة. فهم يعتقدون، بادئ ذي بدء، أنّ كل نبي جاء برسالة في التاريخ كان مصحوبا بإمام يتكفل باستمرار الديانة من بعده. وهم يساندون فكرة أنّ قيادة الأمة بعد النبي محمد لا يمكن أن تكون إلا لرجل معصوم اختاره الله وعينه النبي. ولم يكن هذا الشخص إلا عليا ابن أبي طالب. وهم لا يعترفون بمعصوم واحد بل بأربعة عشر "معصوما": النبي وعلي وفاطمة وأحد عشر إماما من نسلهما. ويرون أنّ سلطة الإمام حقّ روحي وزمني، ديني وسياسي. ولكنّ أئمة الشيعة طوّروا، بعد واقعة كربلاء، تصوّرا لا سياسيا للإمامة باعتبارها سلطة روحية محضة. وهي

سلطة تتأسس على معرفة لدنيّة ومتميزة عن الخلافة
الدينيّة.¹²

يُعتبر مصطلح «الولاية» الذي يشير إلى قداسة
الأئمة وإلى اصطفاء الله لهم، عقيدة خاصة بالتشيع.
ولأنّها تُحمَلُ على حب المؤمنين الواجب للأئمة، فإن
«الولاية» تُعدُّ عند الشيعة ركنا من أركان الإسلام
يضاف إلى الأركان الخمسة التي يشتركون فيها مع
أهل السنة: الشهاداتان وإقامة الصلوات الخمس
وصيام رمضان والزكاة والحج. ونجد هذا الفهم للولاية،
بما هي نوع من الخلة مع الله وضرب من السلطة
الروحية على الناس، في التصوف السنيّ. ولكنّ
الصوفية يقرون بالولاية للكثير من المعلمين الروحيين
الذين لا تربطهم علاقة نسب بعلي وبالرسول. فهم لا
يتمثلون القداسة باعتبارها نوعا من الاصطفاء الوراثي
ولكن باعتبارها نوعا من الاستخلاص الربّاني وذلك
من خلال اتباع طريق السلوك والكدح الفردي.

كان هذا التقارب بين التشيع والتصوف سببا في
منافسة محمومة حول السلطة الروحية وشرعنتها إلى
اليوم. لذا تعرضت الصوفية إلى حملات اضطهاد في

⁽¹²⁾ المرجع نفسه، ص155-173

أحد مواطنهم الأصلية التي ظهوروا فيها، إيران، وقد حصل ذلك منذ أن تحوّل التشيع إلى دين رسمي للدولة في أوائل القرن السادس عشر للميلاد.

اختلاف عقدي كبير آخر ظهر بين الشيعة والسنة هو ذلك المتصل بمنزلة النبي محمد ورسالته. فالقرآن يقول إنّ محمداً «خَاتَمَ النَّبِيِّينَ» (سورة الأحزاب؛ آية 40)، ولذلك يعتقد علماء الكلام السنة أنه كان آخر الأنبياء وأن الوحي القرآني هو نهاية تاريخ النبوات. لا ينكر الشيعة أن يكون محمد هو خاتم الأنبياء من أصحاب الشرائع، ولكنهم يدافعون عن فكرة أنّ دورة نبوة التشريع تعقبها دورة الإمامة التي تكشف باطن الشرائع.¹³ تؤكد أحاديث منسوبة للأئمة أنّ الإمام الأخير فيهم (المهدي) سيقوم عند خروجه من الغيبة الكبرى بتصحيح ما حُرّف من الكتب السابقة، خاصة التوراة والزبور والإنجيل وكذلك القرآن. فضلا عن ذلك كله، يسند الشيعة للأئمة قدرات تبدو مساوية على الأقل لقدرات الأنبياء. إنّ استمرار النبوة مع الأئمة هو موقف شيعي مردود بشدة من لدن المصنفين في

¹³) Henry Corbin, *En Islam iranien. I*, Gallimard, 1971, p. 219-284.

الفرق، ومن طرف الفقهاء والدعاة السنة. في الوقت الذي أصبحت فيه قداسة النبي علامة هوية شديدة الحساسية بالنسبة للمسلمين في مختلف أرجاء المعمورة، فإنّ الشيعة قد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى إخفاء هذه العقيدة.¹⁴

يوجد اختلاف آخر مرتبط بالاختلافات السابقة، وهو يمسّ علاقة الله بالخلق. ينظر علم الكلام السني إلى الله باعتباره كائنا متعاليا ليس كمثله شيء. وعلى الرغم من وضع الشيعة الجوهر الإلهي ما وراء حدود المعرفة، فإنهم يتمثلون الإمام باعتباره تجليا بشريا لله، لكن دون أن يكون ذلك بمعنى التجسد المسيحي. كما يقولون بأن الإيمان الحقيقي يمر حتما عبر حب الأئمة ومعرفتهم. يقترب التصوف-وخاصة منه تصوف ابن عربي- من التشيع وذلك من خلال تفكيره في «الإنسان الكامل» باعتباره ظهورا لله في الإنسان. عندما نتجنب القسمة الثنائية شيعة-سنة، يظهر لنا تمييز آخر بين الإسلام المجرد الذي يرفض

¹⁴) Mohammad Ali Amir-Moezzi, «Dissimulation tactique (*taqiyya*) et scellement de la prophétie (*khatm alnubuwwa*)», *Journal asiatique*, vol. 302, no 2, 2014, p. 411-438.

كل يظهر المتعالي في الإنسان وفي الكون، وبين إسلام يقوم على التجسيم.¹⁵ يتقاسم أهل السنة والشيعة هذا التصور. ولا يبدو أن الوهابية المرتبطة بالتوحيد المجرد، والتي ما تنفك تتهم الشيعة والصوفية بالشرك بجانب الصواب في حكمها هذا. في الختام، علينا أن نشير إلى اختلاف المواقف في شأن الصورة. فإذا ما كان الموقف الرفض للتصوير قد فرض نفسه عند أهل السنة، فإنّ الشيعة لم يجدوا حرجا في تصوير "المعصومين الأربعة عشر" بما في ذلك النبي محمدا.¹⁶ يكمن الاختلاف الأخير بين العقائد السنية والشيعة في فهم نهاية العالم. تبشّر الأحاديث السنية بالمجيء النهائي لرجل يُسمّى المهدي، وهو شخصية ذات هوية نكرة، يحارب المسيح الدجال ويمهد لرجوع المسيح. تقليديا، لا يوجد انتظار المهدي في مركز العقيدة السنية، ولكننا نلاحظ منذ بضع عقود زيادة حادة في الانتظارات المسيحانية داخل الأوساط

¹⁵) Souâd Ayada, *L'Islam des théophanies. Une religion à l'épreuve de l'art*, CNRS Éditions, 2010, p. 65-190

¹⁶) Christiane Gruber, «Between logos (*kalima*) and light (*nûr*) : representations of the prophet Muhammad in islamic paintings », *Muqarnas. An Annual on the Visual Culture of the Islamic World*, vol. XXVI, octobre 2009, p. 229-262.

السنية، خاصة منها الوهابية. أما الشيعة فقد اعتقدوا دائما أن المهدي يتمثل في إمامهم الثاني عشر، ذلك الإمام الذي سيكون المسيح مساعده خلال الجهاد النهائي ضد قوى المسيح الدجال. منذ الغيبة الكبرى للإمام، كان انتظار ظهوره باعتباره مخلصا قياميا في المركز من العقيدة الشيعية. إنها مسيحية شديدة الحيوية سواء عند أنصار التشيع السياسي الذي يسعى إلى التمهيد لعودة الإمام، أو عند أنصار التشيع اللامسيحي الذي يكتفي بالانتظار في صبر.

علينا أن نشير أخيرا إلى أنّ مصطلح «الصراطية» و«البدعة» ليس لهما في الإسلام إلا معنى نسبيا، وهو معنى ليس له نفس الأهمية العقديّة التي يعرفها في الكنيسة الكاثوليكية. إنّ الأطروحات التي يعتبرها علماء السنة والمختصون في الإسلاميات اليوم من قبيل الأطروحات الـ«صراطية»، كانت قد صيغت ضد عقائد أكثر قدما هي بالأساس عقائد شيعية تم اعتبارها لاحقا من البدع. يوجد اقتناع لدى الشيعة بأنهم يمثّلون «الصراطية» الحقّة. وإذا ما كان المذهب السني قد تشكل كرد فعل على التشيع فإنّ العكس هو أيضا صحيح. فما بين الإمامية الأصلية والتشيع الحالي، كان التطور عميقا ومحددا بالمواجهة مع

الأغلبية السنية. وسواء أكان ذلك مردودا إلى البراغماتية أو إلى اقتناع حقيقي، فإنّ منظري الإثني عشرية قد تبّنوا تدريجيا عقائد سنية من مثل سلامة القرآن من التحريف وختم النبوة وأفضلية النبي على الإمام. وقد بلغ الأمر حد رفض بعض مواقف التشيع الأصلي ونعتها بـ«المتطرفة»، وهي عقائد مازالت معتبرة عند الكثير من علماء الدين الشيعة. وبصرف النظر عن هذا التقارب التاريخي، فإنّ الاختلاف العقدي بين أهل السنة والشيعة يبقى اختلافا عميقا يماثل الاختلاف بين الكاثوليكية والبروتستانتية. إذ يتباين هذان المذهبان إلى حد يمكننا معه الحديث عن ديانتين مختلفتين وذلك لولا أنّهما لم يعرفا نفسيهما باستحضار الآخر، ولولا إحالتهما - في النهاية - إلى الوحي نفسه.

3. الطقوس التعبدية وأصول الفقه

ما وراء الاختلافات التاريخية، يتقاسم السنة والشيعة الطقوس الكبرى التي تُسمى بـ"أركان الإسلام". ولكننا نقف في هذا الموضوع أيضا أمام اختلافات عظيمة. فالشيعة يؤمنون، بالإضافة إلى وحدانية الله ونبوة محمد، بولاية علي. كما يضعون جباههم أثناء السجود في الصلاة على حجر من

تراب كربلاء. ويلعنون أثناء الحج الخلفاء الثلاثة الأوائل ويعدون ذلك من الواجبات، وهو ما يتسبب في توتر العلاقة بينهم وبين الوهابية الذين هم الآن «حراس الأماكن المقدسة». في الأماكن التي يوجد فيها سنة وشيعة، يكون لكل مذهب منهما في الغالب مساجد مستقلة.

يعتبر الشيعة زيارة مرقد الأئمة وعائلاتهم ضربا من الواجب الديني ومصدرا للحصول على البركة، خاصة زيارة النجف وكربلاء بالعراق، أو مشهد بإيران. إنّ الطقوس التعبدية التي تقام حول الأضرحة والتوسل بالأئمة هما أمران يطبعان التشيع. ولكننا نجد ذلك في التصوف من خلال أضرحة الأولياء في المغرب وفي مصر وإيران. يُعتبر التشفع بالأولياء نقطة أخرى من نقاط الالتقاء بين التشيع والتصوف السني، وهو أمر مدان بشدة لدى المتشددين من أهل السنة باعتباره بدعة مخالفة لمنهج النبي. ولذلك قام الوهابية من السعوديين بهدم قبور الأئمة المبجلين عند الشيعة في مقبرة البقيع بالمدينة، بما في ذلك ضريح فاطمة الزهراء وأضرحة العديد من الأئمة. هنا أيضا، ليس التعارض بين السنة والشيعة، بل بين تيار سني أقلّي متشدد مناصر لتوحيد مجرد، وبين إسلام روحي

وشعبي سني وشيعي في الآن نفسه، وهو إسلام طَوَّر علاقة حية بالقداسة.

في مستوى الفقه، يكمن الاختلاف الرئيس بين السنة والشيعة في المنزلة المعطاة للاجتهاد. كانت الخطوط العريضة للفقه السني قد تحددت منذ تشكل المدارس الفقهية الأربعة في القرن التاسع للميلاد وذلك رغم أنّ علماء كبارا من أمثال ابن عربي (ت. 1240م) وابن تيمية (ت. 1328م) ومحمد عبده (ت. 1905م) كانوا قد طالبوا بحرية الاجتهاد في مراحل تاريخية مختلفة قصد إنتاج آراء فقهية جديدة. أمّا في التشيع الذي أعيد تشكيله بعد فترة الأئمة التاريخيين، فإن المجهود الشخصي للعالم الذي يعترف به أقرانه (وهو المسمى بـ«المجتهد») لم يكفّ عن تطوير الفقه بما في ذلك الفقه السياسي. حسب العقيدة الشيعية المعتمدة عند رجال الدين-وهي عقيدة طعن فيها بعض علماء المذهب- فإنّ على كل مؤمن أن يقلّد في أمور دينه ودينه مجتهدا من الطبقة العليا يُسمى «مرجع تقليد»، وله أن يختار المرجع الذي يناسبه. يختلف رجال الدين الشيعة عن الكنيسة الكاثوليكية التي يُقَارَنُ بها أحيانا، وذلك لوجود العديد من السلطات المستقلة التي يرتبط شكل

انبثاقها بالمؤمنين أنفسهم. ومن بين خصوصيات الفقه الشيعي التي يراها البعض في مقام الفضيحة، إمكانية عقد النكاح المسمى بـ«المتعة»، وهو نكاح يُلزم الرجل ويحمي المرأة لفترة معلومة.¹⁷ أصبح الفقه الشيعي في إيران أكثر إنصافاً للمرأة بفضل جهود المحامية شيرين عبادي، إذ يمكن للمرأة المتزوجة الآن أن تفرض حقها في العمل، بل حقها في الطلاق وفي حضارة الأبناء.

ثالثاً: الانقسامات الداخلية عند الشيعة وأهل السنة

تخفي القطيعة الكبرى بين السنة والشيعة - وقد كانت سبباً في عدد ضخم من الأدبيات السجالية-، انقسامات داخلية تشق كل تيار منهما. ولتجاوز النظرة الثنائية التبسيطية للإسلام، سيكون من الضروري أخذ تلك الانقسامات الداخلية بالاعتبار.

1. الانقسامات الشيعية

بدأ التشيع الذي نشأ حول شخص علي بن أبي طالب بالانقسام بعد الموت المأساوي للإمام الثالث،

¹⁷) Yann Richard, *L'Islam chi'ite ? Croyances et idéologies*, Fayard, 1991, p. 189-212

أي الحسين بن علي. فبينما كان الأئمة الأوائل للتشيع الإثني عشر، المنحدرين من الإمام الحسين يلزمون سلوكا زهديا صارما، كان بعض المطالبين بالإمامة من نسل الإمام علي يميلون إلى التمرد السياسي.

انشتقت الزيدية عن سلالة الإمام الحسين بعد وفاة الإمام الرابع زين العابدين. وبالإضافة إلى رفضهم للنزعة الزهدية ولعقيدة عصمة الأئمة، يرى الزيدية أنّ كل إمام من نسل علي يخرج على الحكام وينجح في الاستيلاء على السلطة هو إمام شرعي. ويقترّب فقه الزيدية من الفقه السني أكثر من اقترابه من الفقه الإمامي.¹⁸ وهم غير موجودين في أيامنا هذه إلا باليمن حيث يُشكّلون نصف عدد السكان.

كانت الإسماعيلية قد انشتقت عن الجذع المشترك للإمامية بعد وفاة الإمام السادس جعفر الصادق. لا يعترف هذا الفرع الشيعي بعقيدة الغيبة، ويؤمن بإمامة متوارثة لا انقطاع فيها. إثر تشعبه إلى تيارات متنافسة، لعب التشيع الإسماعيلي دورا سياسيا وثقافيا معتبرا في بلاد المغرب وفي مصر على عهد الدولة

¹⁸) Farhad Daftary, *A History of Shi'i Islam*, I.B.Tauris, 2013, p. 145-174.

الفاطمية (909-1171م)، وهي المعروفة في أروبا القرون الوسطى بالأسطورة السوداء للحشاشين.¹⁹ وبعد أن كانت هي الفرع الأكثر تسيّسا عند الشيعة، تخلصت الإسماعيلية من كل فعل عنيف وخضعت لعملية تحديث عميقة. يتربع الآغا خان الرابع (ولد سنة 1957م)، وهو الإمام الإسماعيلي التاسع والأربعون، على ثروة ضخمة، ويدير عدة منظمات إضافة إلى معهد علمي هام بلندن.

تعود النُصيرية - الذين سيتخذون في وقت متأخر اسم العلوية- إلى تلميذ انشق عن آخر الأئمة الفاطميين. ويحافظ مذهبهم على العقائد الشيعية الأكثر قدما، وهي العقائد التي يعتبرها الإمامية الإثني عشرية اليوم "بدعة".²⁰ يسكن العلوية في بلاد الشام حيث يعيشون تدينا سرّيا ويحرصون على إخفاء عقائدهم الباطنية. ولا ترجع قوتهم داخل الدولة السورية منذ سبعينات القرن الماضي إلى أي عامل

¹⁹) *Ibid.*, p. 105-144.

²⁰) *Ibid.*, p. 175-190 ; Meir. M. Bar-Asher, « Le rapport de la religion nuṣayrite-‘alawite au shī‘isme imāmīte », in Mohammad Ali Amir-Moezzi, Meir M. Bar-Asher et Simon Hopkins (dir.), *Le Shī‘isme imāmīte quarante ans après. Hommage à Etan Kohlberg*, Turnhout, 2009, p. 73-93.

ديني، بل ترجع أساسا إلى تدرجهم في المراتب العسكرية وفي حركة البعث ذات التوجه القومي.

كان الشيعة الإمامية هم آخر المجموعات الشيعية ظهورا. ولم يصبحوا أغلبية داخل التشيع إلا بعد الفشل السياسي للإسماعيلية في القرون الوسطى. بمعنى ما، عرف التشيع الإمامي تطورا معاكسا للإسماعيلية. فبعد أن كان يحافظ على موقف لا سياسي على عهد الأئمة التاريخيين (ما بين القرنين السابع والعاشر م.) انتقل إلى عملية تسييس واضحة منذ العهد الصفوي بإيران (ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر) وهي عملية بلغت أوجها في القرن العشرين مع عقيدة «ولاية الفقيه» عند آية الله الخميني. ولكنّ عملية التسييس هذه عرفت دائما مقاومة شرسة داخل المذهب الإمامي. فإلى يومنا هذا، ما زال عدد من علماء الإمامية يعتبرون كل قيادة سياسية - دينية للمذهب عملية مستحيلة وغير شرعية بحكم غياب الإمام المعصوم. كثيرا ما أشارت الدراسات التي كُتبت حول الإمامية إلى أنّ علماء الشيعة قد بدّلوا - بعد الغيبة الكبرى للإمام الثاني عشر - العقيدة الأصلية

للأئمة وذلك بغية جعلها عقيدة فقهية وسياسية.²¹ ولكن علينا الاعتراف أنه لولا هذا الإصلاح، لم تكن الجماعة الشيعية لتستمر، كما لم يكن من الممكن لنا عندها أن نعرف شيئاً عن المذاهب الأصلية.

كثيراً ما يتم ربط التشيع الإمامي بـ"الإسلام الإيراني" وذلك لأسباب روحية أو جغرافية-سياسية. إننا أمام خطأ في المنظور، فضلاً عن كوننا أمام مقاربة إيديولوجية. ذلك أنّ التشيع كله قد ظهر بادئ الأمر في جزيرة العرب وفي العراق، كما أنّ الأئمة كلهم هم من سلالة عربية رغم أن الأسطورة تجعل من الأميرة الساسانية زوجاً للإمام الحسن وجدة الأئمة اللاحقين. بعد أن اتخذ الشاهات الصفويين في بداية القرن السادس عشر من التشيع الإمامي ديانة رسمية للدولة، استدعوا علماء من المراكز الكبرى للتشيع العربي بالعراق وجبل عامل بجنوب لبنان. وكان ذلك قصد تكوين رجال دين وتطبيق سياسة توحيد ديني. وقد دفع هذا الواقع بعض القوميين الإيرانيين إلى التنديد بـ"تشيع" الأمة باعتباره حلقة جديدة في التعريب القسري لإيران. وقد وصل الأمر ببعض

²¹) Mohammad Ali Amir-Moezzi et Christian Jambet, *Qu'est-ce que le shi'isme ?*, Fayard, 2004, p. 181-283

القوميين إلى حد رفض الاعتراف بالإسلام، وإظهار حنين إلى فارس الأخمينية والديانة الزرادشتية، متناسين أنّ كهنة هذه الديانة لم يكونوا أقل تشدداً من الملالي الشيعة. أمّا بالنسبة إلى السنة، فإنه ليس أكثر تخصيصاً بالعرب مما هو التشيع بالنسبة للإيرانيين، بل إنّ الفضل في بنائه يعود في جانب كبير منه إلى علماء من أصول إيرانية. ولذلك فإنّ الانفصال بين السنة والشيعة لا يطابق تقابلاً، هو تقابل محيالي إلى درجة كبيرة، بين الثقافتين العربية والفارسية. فالفرعان الأكبران في الإسلام يتقاسمان النزعة الكونية ذاتها، كما يتقاسمان تمثلاً للرباط العقدي المتعالي على الحدود العرقية والثقافية، وهو ما يمكن أن تُرجع إليه جزءاً من التنافس بين المذهبيين.

2. الانقسامات السنية

من وجهة نظر مذهبية وطقوسية، يبدو المذهب السني أكثر تجانساً من المذهب الشيعي. فالمدارس الأربعة التي تتقاسم أهل السنة منذ الثامن والتاسع للميلاد ليست مذاهب كلامية بل فقهية. وتتعلق اختلافات هذه المدارس بمصادر التشريع الديني التي تشمل الممارسات الثقافية فضلاً عن الشؤون الاجتماعية. تعطي الشافعية التي تنسب إلى الإمام

الشافعي (ت. 820م بالقاهرة) أولوية للحديث النبوي، ويعترف المذهب الحنفي المنسوب لأبي حنيفة النعمان (ت. 767م) بسلطة القياس بعد القرآن والحديث. أما المالكية التي تعود إلى الإمام مالك بن أنس (ت. 795م) فهي تأخذ بالعرف. وترتبط الحنبلية التي تعود إلى أحمد بن حنبل (ت. 855م) بالقرآن بطريقة حرفية وترفض تحكيم العقل، كما تتسم الحنبلية بالتشدد. تتقاسم هذه المدارس الفقهية الأربعة بشكل سلس العالم السني وذلك تبعا لحدود جغرافية وثقافية معينة. احتوى المذهب السني أيضا، منذ البداية على بعد روحي يحمل اسم التصوف. فبعد أن كان التصوف في بداياته تجربة فردية وزهدية، تهيكل موضوعيا فيما يُسمّى بـ"الطرق الصوفية" وذلك منذ الفترة السلجوقية (ما بين القرن الحادي عشر والقرن الثالث عشر للميلاد) لاعبا دورا اجتماعيا وسياسيا هاما في الدفاع عن أهل السنة ضد الحركات الشيعية، كما لعب التصوف دورا في إسلام بعض السكان.²² وهذا يجعل

22) John Spencer Trimingham, *The Sufi Orders in Islam*, Oxford University Press, 1973 ; Éric Geoffroy, «L'apparition des voies : les khirqa primitives», in A. Popovic et G. Veinstein (dir.), *Les Voies d'Allah. Les ordres mystiques dans le monde musulman des origines à aujourd'hui*, Fayard, 1996, p. 44-54,

من التصوف تيارا متعددًا بحكم تنوع الطرق الصوفية وبحكم تأقلمه مع ثقافات العالم الإسلامي من المغرب إلى البلقان، ومن القوقاز إلى الهند.²³ ورغم أن أغلب الطرق الصوفية هي طرق سنية، فنجد طرقًا شيعية أيضًا. ولكنّ الأغلب الأعم من الطرق الصوفية (بسنيّها وشيعيها) تجعل سلاسل إسنادها تنتهي عند الإمام علي بن أبي طالب. لذلك كانت الحدود المذهبية والاجتماعية بين التصوف والتشيع سهلة الاختراق دائمًا. فقد تأثر التصوف والفلسفة لدى الشيعة، وهما علمان شديدا الحيوية إلى يومنا هذا، بصورة كبيرة بتصوف ابن عربي.

تدعو الحركة السلفية، نسبة إلى السلف الصالح في القرون الأولى، إلى العودة إلى إسلام البدايات النقي، وهي دعوة سنية انبثقت من الحركة الإصلاحية في القرن التاسع عشر للميلاد. أمّا الوهابية التي ظهرت من جهتها في القرن الثامن عشر، فإنها شكل سياسي لهذا التشدد. وقد أصبحت الوهابية المذهب الرسمي للمملكة العربية السعودية. وتستلهم هذه الحركات

²³) Voir la 4^{ème} partie «Les ordres dans les espaces» du livre Alexandre Popovic et Gilles Veinstein (dir.), *op. cit.*, p. 259-447

الحديثة بشكل خاص، رغم أنها، الأفكار الحنبلية الجديدة لابن تيمية الذي يعدّ الشيعة كقارا بسبب مقالاتهم في القرآن وفي صحابة النبي، كما أنكرت هذه الحركة السلفية بعض ممارسات الصوفية. وقد أحييت الوهابية هذه المواقف وتشددت فيها. ورغم أنّ الوهابية مازالت أقلية في العالم السني، فإنها طورت منهجا دعويا يبدو فعالا بصورة متزايدة في العالم بأسره. وقد استفادت الوهابية في ذلك من الأداتين الأكثر قوة في أيدي النظام السعودي: العائدات البترولية والتحكم في الحرمين الشريفين بمكة والمدينة. وإذا كانت الوهابية تُظهر الاختلاف عن النزعة الجهادية الثورية عبر استراتيجيتها "الزهدية" في مستوى الدعوة، فإنّ المشروع المجتمعي القائم على قراءة حرفية وانتقائية للنص القرآني وللحديث النبوي هو في الأساس مشروع واحد. وقد اتخذت الوهابية من التشيع عدوها الألدّ داخل الدين الإسلامي، كما تظهر العداوة نفسها تجاه التصوف، وهو ما كشفته الأحداث الأخيرة في مالي.

رابعاً: الشيعة والسنة بين السلام والحرب

كان الغالب على العلاقة بين السنة والشيعة هو العلاقات السلمية والمثمرة، سواء أكان ذلك في المستوى الروحي أم المادي. ولكنّ مظاهر العنف الداخلي كانت قد طبعت كذلك تاريخ الإسلام منذ مرحلة التأسيس إلى يومنا هذا. وهكذا، تطورت في الجهتين بلاغة للحرب وللسلام، للفصل أو للتقارب مع الوجه الآخر من الإسلام.

1. تسميات الحرب وتبريراتها

لكلمة الجهاد في الإسلام معنى روحي يحول دون اختزالها في معركة حربية.²⁴ وهو معنى روحي نجده في التصوف والتشيع على حد سواء. ولكن بسبب التاريخ والرهانات الحالية، فإنّ ما سيشدنا هنا هو معنى «الجهاد في سبيل الله». كان الشيعة والسنة قد فهموا هذا الجهاد ومارسوه بطريقة شديدة الاختلاف، وهو ما يرجع بالأساس إلى وضعية كل مذهب منهما. فبالنسبة إلى أهل السنة الذين كانوا يشكلون أغلبية المسلمين، فإنّ الخصم المعني بالجهاد كان في

²⁴) Éric Geoffroy, *Le pluralisme religieux en islam, ou la conscience de l'altérité*, Valeurs d'islam 1, Fondation pour l'innovation politique, janvier 2015, p. 25-26.

الأغلب قوة غير مسلمة. كان الشيعة يمثلون الآخر في الداخل، وهو عدو كان من المحتم محاربتة، بل من الواجب الشرعي محاربتة قصد حماية الدين. كان أهل السنة في الغالب قد سمّوا هذه المعركة "حرباً" دون دلالات حافة مقدسة كما هو الأمر في مصطلح "الجهاد".²⁵ في مقابل ذلك، كانت القوة السنية بالنسبة إلى الشيعة هي الخصم في مجمل المواجهات، الضدية المطلقة بامتياز. وهو ما جعل الصراع ضد أهل السنة، سواء أكان حقيقياً أو متوهماً، يُسمّى دائماً "جهاد". وفي المصادر السنية، أُطلق على أنواع العنف السياسي في بدايات الإسلام "الفتنة الكبرى" واتبعتها في ذلك المؤرخون النقديون المعاصرون.²⁶ ولكن المصادر الشيعية تروي أنّ علياً وشيعته كانوا يعتبرون معركة صفين جهاداً يتواجه فيه المؤمنون الحقيقيون والمنافقون الذين ورد ذمهم في القرآن. إنّها معركة مقدسة يعلم الشيعة أنّهم قد خسروها في مستوى التاريخ.

يُخبرنا الفقه الإسلامي أن الجهاد يمكن أن يوجّه

²⁵) Alfred Morabia, *Le Ğihād dans l'Islam médiéval*, Albin Michel, 1993, p. 298-308

²⁶) Hichem Djaït, *op. cit*

ضد المشركين والمرتدين وضد أهل الكتاب وأهل البغي. وباستعمال هذا المصطلح الأخير (أهل البغي) استطاع علماء السنة أن يدعوا الناس إلى جهادهم مستندين إلى الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ (سورة الحجرات؛ آية 9). لم تكن الحرب مبررة إلا في عهد النبي عند قتاله الذين كفروا برسالته من المشركين، ولكن ولي الأمر كان مضطرا إلى شنّ الحرب ضد المسلمين الخارجين عن طاعته وذلك قصد المحافظة على وحدة الأمة. وقد كان السلطان المملوكي صلاح الدين الأيوبي قد مارس هذه النظرية في القرن الثاني عشر للميلاد، بحيث جعل من قمع الشيعة مقدمة ضرورية لجهاد دفع الصائل ضد الصليبيين. وقد كفّر ابن تيمية، تحت حكم المغول الذين كانوا ميالين إلى الشيعة، مختلف المجموعات الشيعية واعتبر الجهاد ضدهم أمرا شرعيا. وتبعه محمد بن عبد الوهاب (ت. 1792م) مؤسس الوهابية الذي اعتبر الشيعة "أعظم ضرر على الدين من اليهود والنصارى"

، وهو موقف سارع مؤيدوه إلى ترجمته الفعلية بتقتيل الآلاف من الشيعة في كربلاء سنة 1801م.²⁷

كان الشيعة، في الأصل، يرون أنّ الإمام المعصوم وحده هو من له حق قيادة المعركة المقدسة، وكانوا يرون أنّ الحرب المقدسة الوحيدة هي التي تكون من أجل الإمام. ولكن بعد استشهاد الإمام الحسين تخلى أئمتهم عن كل فعل سياسي فأسقطوا وجوب الجهاد إلى حين الحجيء النهائي للمخلص الذي سينماهى في مرحلة لاحقة مع الإمام الثاني عشر الغائب غيبة كبرى. تكثر الأحاديث الشيعية التي تتحدث عن المعركة القيامية للمهدي وجيشه، تلك المعركة التي سيقضي فيها على أعداء الله من أنصار المذهب السني ((ليملاً الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً)).

نظرياً، تم تعطيل واجب الجهاد إلى نهاية الزمان، ولكنّ فقهاء الشيعة تفتنوا إلى أنّه لا يمكن الدفاع في الممارسة الواقعية عن هذا التعطيل لحقوق الإمام. فقرروا أنه في فترة الغيبة الكبرى، يمكن إعلان الجهاد الدفاعي (دفع الصائل) عن طريق نائب الإمام.

²⁷ Meir Litvak, « “More harmful than the Jews”: ani Shi’I polemics in modern radical Sunni discourse », in M.A. Amir-Moezzi, M.M. Bar-Asher et S. Hopkins (dir.), *op. cit.*, p. 293-314.

وهكذا استطاعت إيران الصفوية (ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر)، وهي التي كانت دولة تتبنى التشيع الإمامي، أن تعطي شرعية دينية لحربها شبه الدائمة ضد الإمبراطورية العثمانية المجاورة، والتي كانت هي القائمة على أمور أهل السنة. ومنذ القرن التاسع عشر للميلاد، أسند كبار مجتهدي الشيعة إلى أنفسهم الحق في إعلان الجهاد. وقد كان ذلك انتصارا إيديولوجيا، ولكنه كان في الغالب هزيمة عسكرية منذ الحروب الفارسية الروسية في القرن 19 للميلاد وصولا إلى الحرب العراقية الإيرانية ما بين 1980 و 1988 م، وهي الحرب التي انتهت بتحكيم رضي به آية الله الخميني وهو كاره.²⁸

2. من التقريب إلى التكفير

رغم أنّ المواجهات الحالية قد جعلت أمر التقريب بين المذهبين نسيا منسيا، فإنّ القرن العشرين قد شهد عملية تقريب رسمي بين ممثلي التيارين الكبيرين في الإسلام. وقد اجتهد بعض العلماء الشيعة البارزين من مثل العلامة العراقي كاشف الغطاء (ت. 1954)

²⁸) Etan Kohlberg, "The Development of the Imâmî Shî'î Doctrine of *Jihâd*", in Etan Kohlberg, *Belief and Law in Imâmî Shî'ism*, Variorum, 1991, p. 69 et 81-82

في تنفيذ الاتهامات التي وجهها لهم علماء الفرق السنية وذلك بالإنكار الصريح للعديد من أطروحات التشيع الأصلي. أدّت هذه المجهودات سنة 1959 م، إلى صدور فتوى من عميد جامعة الأزهر بالقاهرة يعترف فيها بالمذهب الشيعي الإمامي أو الجعفري (نسبة إلى الإمام السادس) مذهباً فقهياً خامساً يضاف إلى المذاهب السنية الأربعة التي أشرنا إليها أعلاه.²⁹ ويقوم مفاتي الأزهر إلى يومنا هذا بإدماج أحكام الفقه الجعفري مع أحكام المذاهب السنية الأربعة في إجراءات التقاضي. كما نجد ضرباً آخر من التقارب الذي كان أيديولوجياً هذه المرة، وهو الذي حصل بين الإخوان المسلمين والتشيع السياسي لآية الله الخميني. كان هذا التقارب يحمل في طياته تأثيراً متبادلاً. ذلك أنّ الخميني كان قد استلهم المنظر الإخواني سيد قطب في وضع نظرية «الحكومة الإسلامية»، وفي مقابل ذلك كان راشد الغنوشي زعيم حركة النهضة والعضو البارز في التنظيم الدولي للإخوان المسلمين يتباهى بالحركة الثورية الخمينية.

²⁹) Rainer Brunner, « Interesting Times : Egypt and

Shi'ism at the Beginning of the Twenty-First Century », in Ofra Bengio et Meir Litvak (dir.), *The Sunna and Shi'a in History. Division and Ecumenism in the Muslim Middle East*, Tel-Aviv, 2011, p. 223-241

لكنّ الثورة الإسلامية في إيران سنة 1979م، إضافة إلى إشعاع آية الله الخميني، كان لهما تأثير سيء في تغذية مخاوف علماء السنة من توسّع شيعي محتمل، كما كان هذان العاملان وراء استيقاظ النزعة الحشوية المعادية للتشيع عند الوهابية. وعلى إثر سقوط نظام صدام حسين سنة 2003 وانتقال السلطة من الأقلية السنية إلى الأغلبية الشيعية بالعراق، أعلن زعيم القاعدة ببلاد الرافدين الزرقاوي حرب إبادة ضد الشيعة في العالم بأسره. لم يبلغ الدعاة السلفيون والوهابيون هذا الحد ولكنهم لا يكفون عن اتهام الشيعة بتقديس قرآن آخر وبالخط من قدر النبي وبعتماد التقيّة. ويذهب بعض هؤلاء العلماء إلى حد اللعن الذي يستوجب تكفير الشيعة، وهو ما يبرر مجاهدتهم بمنتهى القسوة. يقع نشر هذه الخطابات بطريقة ممتازة على شبكة الانترنت، وهي تتوجه في الأغلب إلى جمهور تعوزه الثقافة الدينية.30 إذ من المؤكد أنه لا سلطة في الإسلام تمتلك حق التكفير، وأنّ مثل هذه التصريحات لا قيمة لها، وهو ما ذكر به شيخ الأزهر أحمد الطيب سنة 2010م. ولكنّ

30) Meir Litvak, *art. cit.*

الفاعلية المميتة للتكفير الموجه ضد الشيعة في العراق، وسوريا والباكستان، يثبت بصورة مأساوية أنّ الفقه قد فقد سلطته أمام قوة الدعوة.

بقي التقارب المذهبي في إيران الشيعية، مع التسنن "الصراطي" للمذاهب الفقهية الأربعة، مع استثناء الوهابية، أمرا راهنا وذلك في المؤسسات والمدارس الدينية بمدينة قم. وبعد سنوات من التغني بالشهيد وبالحرث المقدسة المؤسسة على ذكرى معركة الإمام الحسين، تدفع السلطات الدينية والسياسية إلى الواجهة بموضوعة «الصلح المفروض»، وذلك اعتمادا على الاختيار المؤلم الذي اتخذه الإمام الثاني الحسن بن علي بالتخلي عن الصراع قصد المحافظة على حياته وحياة شيعته ومستقبل الجماعة.³¹

3. أشباح "التشيع" و"الهلل الشيعي"

باستحضار الانقسامات الداخلية للتشيع والايديولوجيا الوهابية المعادية للشيعة، يمكننا أن نفهم بصورة أفضل طبيعة التحالفات الحالية ورهاناتها. فإذا كانت إيران تساند النظام العلوي في سوريا والثوار

³¹ يمكن الإشارة إلى كتاب الرئيس الإيراني الحالي حسن روحاني (بالفارسية)، مقدمة لتاريخ الأئمة الشيعة، طهران، 2012، ص

الزيديين في اليمن، فإنّ ذلك راجع إلى رغبة هذا البلد في أن يكون له منطقة نفوذ في العالم العربي ضد القوة السعودية، هذه القوة التي ما انفكت تعمل على عزل إيران دبلوماسياً. ولكننا لا نستطيع أن نعتقد في جدية وجود مشروع لـ"تشيع" العالم الإسلامي، ولا أن نؤمن بشبح "الهلال الشيعي"، وهو مصطلح نحتّه بعض زعماء دول سنية تتغذى من الخطاب الوهابي. فالاختلافات العقديّة والفقهية بين التيارات الشيعية تجعل من هذه التعبيرات فاقدة للمعنى، والحال أنّ رجال الدين الإمامية بإيران والعراق هم على درجة عالية من البراغماتية التي تمنعهم من صياغة مثل هذه الأوهام. فدعوة الرئيس السوري بشار الأسد إلى التضامن الشيعي قصد إنقاذ نظامه هو أمر واقع، ولكن ينبغي الاعتراف بأنه لا يوجد بين المشروع المجتمعي البعثي وبين "الحكومة الإسلامية" الإيرانية شيء مشترك ذو بال، اللهم إلا نوعاً من الاحترام للتعدد الديني. ينتسب حزب الله اللبناني إلى مفهوم ولاية الفقيه عند آية الله الخميني وعند خلفه خامنئي، ولكننا لا نستطيع أن نعتبره مجرد أداة بيد إيران. فأهدافه السياسية توجد في لبنان حيث يُعتبر حزبا قانونيا وهو ما دفعه إلى التدخل في سوريا. ذلك أنّ

التنامي المطرد للتطرف السني المعادي للشريعة،
سيجعل شيعة جنوب لبنان مهددين بصورة مباشرة في
حال سقوط سوريا بأيدي الوهابيين.

إنّ انقسام الإسلام بين الشيعة والسنة ليس إذا
مجرد منظور فكري بل هو حقيقة بنيوية ومتحركة.
ويجب مقارنة هذه الحقيقة باعتماد خط آخر للقسمه
يخترقها، وهو يفصل بين إسلام فقهي-سياسي غير
متسامح وقائم على الإكراه، وبين إسلام روحي
زهدي، غير منشغل بالسياسة. وإذا ما كان الإسلام
السياسي السني ومقابله الشيعي يسعيان إلى التقارب
والتصادم على حد سواء، فإنّ الإسلام الروحي السني
ومقابله الشيعي يسعيان في نفس الوقت إلى الصراع
وإلى التماهي.

تتمثل مفارقة الانقسام الداخلي في الإسلام في
كون الاختلافات المذهبية الأساسية تذوب في
الممارسات التعبدية المتشابهة. وطالما لم يقع توظيف
الذاكرة التاريخية والمساجلات الكلامية من أجل
غايات سياسية، فإنّ الاختلافات بين السنة والشيعة
لا تمنعهما من العيش والعمل والاعتقاد معا. وفي
الوقت الذي تتحرك فيه خطابات الكراهية والأسلحة
والمقاتلين عبر العالم بسرعة حركة رؤوس الأموال، فإنّه

سيكون من السداجة أن نعتقد أنّ الروحانية والتعايش
بما هما قيمتان تقعان في المركز من الإسلام سوف
تنتصران بمفرديهما. من الملحّ في العالم السني المسارعة
إلى إشعال بعض مضادات الحرائق السياسية والفكرية
وذلك لمواجهة الوهابية وغيرها من التيارات الأشد
تطرفا والتي ما فتئت تكتسح المزيد من الشوارع
والعقول. أما في العالم الشيعي، وبالتحديد في إيران،
فإنّ مهمة المصلحين المعتدلين هي طيّ صفحة
المسيحانية السياسية التي تجسدت في الماضي القريب
في الرئيس محمد أحمددي نجاد. توجد حاليا هذه
المجهودات في الجهتين، وينبغي مساندة هذه الجهود
من طرف الدوائر السياسية والفكرية في العالم غير
الإسلامي. فالسلم العالمي اليوم أصبح رهين هذا
"الصلح المفروض" بين تيارَي الإسلام.

قيم الإسلام

<p>3 قيم الإسلام</p> <p>الإنسانية والإنسية في الإسلام</p> <p>أحمد بوإردان أفريل 2015</p>	<p>2 قيم الإسلام</p> <p>القرآن، مفاتيح للقراءة</p> <p>طارق أوبرو أفريل 2015</p>	<p>1 قيم الإسلام</p> <p>التعددية الدينية في الإسلام، أو الوعي بالغيرية</p> <p>إيريك جوفروا جانفي 2015</p>
<p>6 قيم الإسلام</p> <p>الإسلام وقيم الجمهورية</p> <p>سعد الخياري جوان 2015</p>	<p>5 قيم الإسلام</p> <p>الإسلام والميثاق الاجتماعي</p> <p>فيليب مولني أوت 2015</p>	<p>4 قيم الإسلام</p> <p>التصوف: روحانية ومواطنة</p> <p>باريزا الخياري جوان 2015</p>
<p>9 قيم الإسلام</p> <p>الإسلام والديمقراطية: الأسس</p> <p>أحمد الريسوني نوفمبر 2015</p>	<p>8 قيم الإسلام</p> <p>النساء والإسلام، رؤية إصلاحية</p> <p>أسماء المرابط أكتوبر 2015</p>	<p>7 قيم الإسلام</p> <p>الثرية في الإسلام</p> <p>مصطفى الشريف أكتوبر 2015</p>
<p>11 قيم الإسلام</p> <p>الشيعة والسنة: سلام مستحيل؟</p> <p>ماتيو تيزيه جانفي 2016</p>	<p>10 قيم الإسلام</p> <p>الإسلام والديمقراطية في مواجهة الحداثة</p> <p>محمد بدّي ابو ديسمبر 2015</p>	

Fondation pour l'innovation politique

مؤسسة التجديد السياسي

ثناك تانك ليبرالي، تقدمي أوروبي

تقدم مؤسسة التجديد السياسي فضاء مستقلا من الخبرة الفنية والتفكير والتبادل، متوجهة نحو إنتاج الأفكار والمقترحات وتوزيعها. وهي تساهم في تعددية الفكر وتنمية الحوار العمومي ضمن توجه ليبرالي، تقدمي أوروبي. وتعطي المؤسسة الأولوية إلى أربعة رهانات كبرى: التنمية الاقتصادية؛ الإيكولوجيا؛ القيم؛ والرقمية.

يضع الموقع الرسمي www.fondapol.org على ذمة الجمهور جميع أعماله. وتجعل منصتها المعلوماتية " Data fondapol " مُتاحة للجميع للولوج واستعمال المعلومات المُجمَّعة في مختلف مراحل الاستبيانات وبمختلف اللغات، عندما يتعلق الأمر بدراسة عالمية. وبالإضافة إلى ذلك فإن موقعنا الإعلامي " Trop Libre " يسلط نظرة نقدية يومية على الأحداث اليومية وحراك الأفكار. " Trop Libre " تقترح أيضا يقظة مستمرة لمتابعة تداعيات الثورة الرقمية على الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وذلك عبر تخصيص خانة خاصة في الموقع يحمل تسمية " Renaissance numérique " (الإحياء الرقمي) وكانت تسمى سابقا: Politique 2.0. مؤسسة التجديد السياسي مؤسسة غير ربحية، وتخضع لنظام الخدمة العامة. وهي مستقلة ولا تخضع في تمويلها إلى أي حزب سياسي. مواردها عمومية وخاصة، وتتمتع بدعم من الشركات ومن الخواص، وبشكل رئيس من تنمية نشاطاتها.

La Fondation pour l'innovation politique

Les données en open data

data.fondapol.org

Le site internet

www.fondapol.org

Les médias

fondapol.tv



LinkedIn



Une voix libérale, progressiste et européenne

11, rue de Grenelle
75007 Paris – France
Tél. : 33 (0)1 47 53 67 00
contact@fondapol.org